

مصطلح التداولية والتلقي العربي The Term Pragmatic and Arabic Reception

د. عزوز ختيم*

جامعة محمد بوضياف، المسيلة (الجزائر)

azzouz.khatim@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2022/12/09 تاريخ القبول: 2023/01/28 تاريخ النشر: 2023/01/31

Abstract:

Terms are the key on which all sciences, concepts and perceptions are based. Such an importance has led to the advent of an independent science called “terminology”. It has become impossible to approach any science without the exact determination of its terms, especially those terms that transfer to cultures and languages that are different from the culture and the language of origin. They migrate to new environments without losing their civilizational and cultural loads, which are often exotic or new to the receiving environment. It would be a scientific and methodological mistake to deal with the same concepts in their new environment. The term pragmatic linguistics for example is one of these terms. It has been the subject of much variation and difference in conveying its meaning and translating it to Arabic for more than fifty years. In this regard, this study tries to shed light on the term “pragmatics” as it is the most widely used and accepted by linguists.

Keywords: Pragmatic, linguistics, terms, reception

ملخص البحث:

لا يخلو علم من العلوم من المصطلحات التي تؤثّر له ويبنى عليها مفاهيمه وتصورات، وبالتالي اكتست المصطلحات هذه الأهمية بل صارت علما مستقلا بذاته، وأصبح من غير الممكن مقارنة أي علم دون تحديد علمي دقيق لمصطلحاته، لاسيما تلك المصطلحات التي تنقل إلى ثقافات ولغات تختلف عن ثقافة ولغة المنشأ، فتهاجر إلى بيئات جديدة لكنها تظل تحتفظ بحمولتها الحضارية و الثقافية و التي في كثير من الأحيان هي حمولات لمفاهيم غريبة أو جديدة على بيئة المهجر فيكون من الخطأ المنهجي أن تعامل بالمفاهيم نفسها في بيئتها الجديدة، ومصطلح اللسانيات البراغماتية هو أحد هذه المصطلحات التي دار حولها كثير من اللغظ و الاختلاف في نقل معناها إلى العربية فتارة تترجم إلى التداولية و تارة إلى النفعية و تارة إلى الذرائعية و تارة إلى التواصلية و تارة أخرى إلى التخاطبية، وهو الاختلاف الذي استمر لأكثر من نصف قرن وهذا ما تحاول هذه المداخلة أن تعرضه بشيء من التفصيل متناولة المصطلح الأكثر تداولاً وقبولاً في أوساط المشتغلين باللسانيات وهو التداولية

الكلمات المفتاحية:

التداولية؛ اللسانيات؛ المصطلحات؛ التلقي.

1 / التداولية في اللغة والاصطلاح:

لا يمكن لمصطلح ما أن يبيّن مفهومه بعيدا عن معناه اللغوي المعجمي، ولا يمكن للمعنى الاصطلاحي أن يكون مخالفا للمعنى اللغوي أبدا، فمهما ابتعدت ظلاله الدلالية فهي حتما ستظل مرتبطة بالمعنى الأصلي للفظ داخل المعجم، ولهذا وقبل كل تعريف اصطلاحى هناك تعريف لغوي يمهّد له، وهو ما سنفعله في السطور الآتية:

أ- التداولية في لغة القرآن:

وردت مادة (دول) في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾⁽¹⁾، «حيث يفسرها صاحب الكشف بقوله: ...نداولها: نُصَرِّفُهَا بَيْنَ النَّاسِ، نُدِيلُ تَارَةً لِهَؤُلَاءِ وَتَارَةً لِهَؤُلَاءِ، كقوله: وهو من أبيات الكتاب فيوما علينا ويوما لنا ويوما نساء ويوما نسر»⁽²⁾ أي بمعنى أن النصر مرة لهم ومرة عليهم. ويقول تعالى أيضا: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾⁽³⁾ وبيّناها: «كي لا يكون ذلك الفئ (دولة) يتداوله الأغنياء منكم بينهم، يصرفه هذا مرة في حاجات نفسه وهذا مرة في أبواب البر وسبيل الخير»⁽⁴⁾، وفصل الزمخشري تفسيرها قائلا: «كي لا يكون الفئ الذي حقه أن يعطى للفقراء ليكون لهم بُلغة يعيشون بها ...أو كي لا يكون دولة جاهلية بينهم، ومعنى الدولة الجاهلية أن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة ...»⁽⁵⁾

من خلال ما ورد في هذه الآيات البيّنات نلاحظ أن لفظة التداولية ومشتقاتها حملت معنى التغير والتحول وعدم الثبوت والاستقرار أي تغير حال القوم من حال إلى حال أخرى أو التعاقب والتناوب على أمر ما، وهذا ما يميز اللغة فهي تنتقل من المتكلم إلى السامع فيكون المعنى بدوره متغيرا غير مستقر بين المرسل والمرسل إليه.

ب- التداولية في المعاجم العربية:

يرجع مصطلح التداولية إلى مادة (دول) والتي تدور دلالتها في المعاجم العربية حول مفهوم التحول والتبدل والتناقل والانتقال...، حيث نجد ابن منظور يورد في لسان العرب في مادة (دول): «والدولة بالفتح في الحرب أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى، يقال كانت لنا عليهم الدولة، والجمع الدول، والدولة بالضم في المال، يقال صار الفئ دولة بينهم يتداولونه مرة لهذا ومرة لهذا ... والدولة الانتقال من حال إلى حال ... لم يتداوله ... أي لم يتناقله ... والدولة الانتقال من حال الشدة إلى حال الرخاء، وتداولنا الأمر أخذناه بالدول، ودالت الأيام أي دارت، وتداولته الأيدي أخذته هذه مرة وهذه مرة، ودواليك أي تداول بعد تداول ...»⁽⁶⁾

وأما في معجم أساس البلاغة فيذكر الزمخشري: «دول: دالت له الدولة، ودالت الأيام بكذا ... والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم... وتداولوا الشيء بينهم ... والمماشي يداول بين قدميه، وتقول دواليك أي كرات بعضها في إثر بعض»⁽⁷⁾.

فمن خلال ما ورد في المعاجم العربية نستخلص أن مادة (دول) لا تخرج عن معاني التحول والتناقل «والذي يقتضي وجود أكثر من حال، ينتقل بينها الشيء»، وتلك حال اللغة متحوّلة من حال لدى المتكلم إلى حال أخرى لدى السامع ومتنقلة بين الناس "يتداولونها" بينهم، ولذلك كان مصطلح التداولية أكثر ثبوتاً من المصطلحات الأخرى. ⁽⁸⁾ والفعل (تداول) على صيغة (تفاعل) والتي تدل على معنى المشاركة، فالمتكلم والمتلقي يتشاركان ويتفاعلان لإنجاز وإنجاح العملية التواصلية من خلال مراعاة كل منهما لمجموعة من المبادئ تضمن هذا النجاح، وعليه يكون التداول «جامعا بين جانبين هما: التواصل والتفاعل، فمقتضى التداول إذا أن يكون القول موصولا بالفعل» ⁽⁹⁾، وهذا فحوى نظرية الأفعال الكلامية التي تعتبر أساس التداولية وأهم ركائزها، فالتلفظ بالأقوال ينجر عنه إنجاز للأفعال.

ج - التداولية في المعاجم الغربية

إذا رجعنا إلى الاستعمالات الأجنبية وجدنا أن التداولية يصطلح عليها ب: "*pragmatique*"، في الفرنسية و"*pragmatics*"، في الإنجليزية «ويعود أصلها الأجنبي إلى الكلمة اللاتينية "*pragmaticus*" العائد استعمالها إلى عام 1440م، وتتكون من الجذر "*pragma*"، وتعني عملاً أو فعلاً، ثم صارت بفعل اللاحقة تطلق على كل ما له نسبة إلى العمل أو الفعل» ⁽¹⁰⁾ و"*pragmaticos* الإغريقية بمعنى عملي» ⁽¹¹⁾.

ومصطلح *pragmatique* في اللغة الفرنسية «كان يستعمل في المجال القانوني قبل أن يدخل مجال الدراسات الأدبية والفلسفية، وتحديدًا في عبارة "*sanction pragmatique*"، وتعني المرسوم أو المنشور الذي يهدف إلى تسوية قضية مهمة باقتراح الحلول العملية والنهائية، ثم استعملت في مجال العلوم البحتة لتدل على كل بحث أو اكتشاف له صفة إمكانية التطبيق العملي» ⁽¹²⁾.

بعد ذلك أصبحت هذه الكلمة تستعمل في لغة الحوار بين الناس كقولنا: هذا تفكير عملي، دلالة على أن شخصا ما مَيَّال إلى إيجاد الحلول العملية والواقعية لما قد يطرح من إشكالات.

2 / التداولية في الدراسات الغربية

قبل التطرق إلى مفهوم التداولية نميز أولاً بين مصطلحي "*pragmatique*" ومصطلح "*pragmatisme*" فالأول يقصد به التداولية المرتبطة بالجانب اللغوي ويمثل نتاج فلسفة اللغة التي أسسها موريس وفيتجنشتاين وأوستن، أما الثاني فهو ما يصطلح عليه «بالذرائعية أو النفعية وهي مذهب فلسفي يرى في المنفعة معياراً للحقيقة أسسه ويليام جيمس وجون ديوي ويعرّف بأنه التفكير بحل المشاكل بطريقة مقبولة بدلا من اعتماد آراء ونظريات ثابتة» ⁽¹³⁾.

التداولية تمثل فرعاً من فروع علم اللغة، يبحث في كيفية اكتشاف السامع لمقاصد المتكلم ودراسة معناه، لأن المتكلم كثيراً ما يعني أكثر مما تقوله كلماته أو يقصد عكس ما تقوله كلماته فيختلف بذلك المعنى الحرفي لعباراته عن المعنى المقصود. «فالتداولية هي دراسة اللغة في الاستعمال أو التواصل، لأن المعنى ليس متأصلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم والسامع وحدهما وإنما في تداول اللغة بين هذه الأطراف» ⁽¹⁴⁾.

ولقد تعددت تعاريف اللسانيات التداولية بين علماء الغرب ولعلّ أقدمها هو تعريف "موريس" 1938 الذي يقر فيه بأن: «التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات»⁽¹⁵⁾ ويرى "نعمان بوقرة" أن هذا التعريف «واسع يتعدى المجال اللساني إلى السيميائي، والمجال الإنساني إلى الحيواني والآلي»⁽¹⁶⁾، أما "آن ماري ديير" و"فرانسواز ريكاناتي" فيعرفان التداولية بقولهما: «التداولية هي دراسة استعمال اللغة في الخطاب» شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية فهي إذن تهتم بالمعنى كالدلالة وبعض الأشكال اللسانية التي لا يتحدد معناها إلا من خلال استعمالها»⁽¹⁷⁾.

وبالتالي فالتداولية وعلم الدلالة علمان متداخلان لأن كليهما يهتمان بالمعنى الذي هو جوهر التواصل، وأما فرانسيس جاك فيرى أن التداولية: «تتطرق إلى اللغة خطابية وتواصلية واجتماعية معا»⁽¹⁸⁾ حيث يشرح "نعمان بوقرة" هذا التعريف بقوله: «فباللغة من هنا استعمال بين شخصين للعلامات استنادا إلى قواعد موزعة تخضع لشروط إمكانية الخطاب، والتداولية هي الفرع العلمي من مجموعة العلوم اللغوية التي تختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة، ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام»⁽¹⁹⁾، وعليه فإن التداولية تعنى بالعلاقة بين مستخدمي الأدلة اللغوية (المرسل والمرسل إليه) وعلاقة التأثير والتأثر بينهما. كما نجد "فاندايك" يعطي تعريفا آخر للتداولية يقول فيه: «التداولية بوصفها علما يعنى بتحليل الأفعال اللغوية ووظائف المنطوقات اللغوية، وسماتها في عملية الاتصال بوجه عام، انطلاقا من كون المنطوقات اللغوية تهدف إلى الإسهام والتفاعل الاجتماعي»⁽²⁰⁾.

وهو بهذا يرى أن التداولية تهتم بتبيين معاني الكلمات أو العبارات المستعملة في التواصل بين الأفراد ووظائفها في مختلف السياقات والتي تؤدي إلى تعزيز التفاعل الاجتماعي، بمعنى أن التداولية هي العلم الذي يدرس استخدام الناس للأدلة اللغوية في أحاديثهم وخطاباتهم، وفي المقابل تهتم بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث، أي أن اهتمامها منصب على دراسة التواصل اللغوي ويقدم "جورج يول" في هذا الصدد أربعة تعريفات للتداولية «تتأسس على مفاهيم مركزية هي: القصد، والسياق، والإضمار التداولي، ومبدأ التعاون»⁽²¹⁾، ويمكن إدراج هذه التعريفات على النحو الآتي:

1- التداولية هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم: تشتغل التداولية على دراسة ما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر من اشتغالها على ما يمكن أن تعنيه هذه الألفاظ وهي مستقلة، بمعنى أنها تهتم بالتراكيب قيد الاستعمال ولا تهتم بالألفاظ المستقلة عن السياق اللغوي

2- التداولية هي دراسة المعنى السياقي: تفسر التداولية ما يعنيه الناس في سياق معين وتبين كيفية تأثير السياق فيما يُقال، لأن الألفاظ المفردة إذا وُظفت في سياق معين قد يختلف معناها ويتغير من المعنى الحرفي إلى المعنى الضمني يحكمه سياق الكلام.

3- التداولية هي دراسة كيفية إيصال أكثر مما يُقال، تدرس التداولية كيفية التي يصوغ من خلالها المتلقي استدلالا عما يُقال للوصول إلى تفسير المعنى الذي يقصده المتكلم: أي أنها تبحث في كيفية إدراك قدر كبير مما لم يتم قوله على أنه جزء مما يتم إيصاله، حيث تحتكم التداولية في هذه الدراسة لعدة أدوات وإجراءات سنتحدث عنها لاحقا.

4- التداولية هي دراسة التعبير عن التباعد النسبي: تركز وجهة النظر هذه على أن المتكلمين يحددون مقدار ما يحتاجون قوله بناء على افتراض قرب المستمع أو بعده ماديا أو اجتماعيا أو مفاهيميا.

نستخلص من هذه التعاريف التي طرحها "جورج يول" أن التداولية تهتم بدراسة معاني الألفاظ ضمن السياق لا مستقلة عنه، وهذا الأخير هو الذي يحدد الكيفية التي يوصل بها المتكلم مقاصده للمستمع حيث يبني كلامه وفق ظروف التواصل وطبيعة المتلقي ونلمس ذلك عند العلماء العرب في قول الجاحظ: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار السامعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما...»⁽²²⁾

أما مؤسس التداولية ورائدها أوستن فيرى أنها: «جزء من علم أعم هو دراسة التعامل اللغوي من حيث هو جزء من التعامل الاجتماعي، وبهذا المفهوم ينتقل باللغة من مستواها اللغوي إلى مستوى آخر، هو المستوى الاجتماعي في نطاق التأثير والتأثر»⁽²³⁾ بمعنى أن التداولية «تدرس التواصل اللغوي في إطاره الاجتماعي بالكشف عن الشروط والمعطيات التي تسهم في إنتاج الفعل اللغوي وتأثيره من جهة كما تبحث في فاعليته وآثاره العملية من جهة أخرى»⁽²⁴⁾

3 / التداولية في الدراسات العربية الحديثة:

تأسيسا على المفهوم العام لـ (*pragmatique*) في الدرس اللساني الغربي الحديث، وهو دراسة اللغة أثناء الاستعمال؛ أي حينما تكون متداولة بين مستخدميها، فإنه عند تلقي هذا المنهج في الفكر اللغوي العربي تعددت ترجماته وتعريفاته، بحسب تعدد مصادر تلقيه سواء الإنجليزية منها أو الفرنسية، وبحسب المدرسة أو التيار الذي تأثر به اللغويون العرب الذين عملوا على نقل هذا العلم والتعريف به في الأواسط العربية.

ويعد طه عبد الرحمن الباحث المغربي أول من اقترح مصطلح التداولية كمقابل لمصطلح (*pragmatique*)، مستندا في ذلك إلى الصلة التي تربط المفهوم اللغوي بالمفهوم الاصطلاحي حيث يقول: «من المعروف أن الفعل تداول في قولنا: تداول الناس كذا بينهم. يفيد معنى تناقله الناس وأداؤه فيما بينهم»⁽²⁵⁾، ولذلك يرى بعض العلماء والدارسين أن مصطلح التداولية هو الأنسب كمقابل لمصطلح (*pragmatique*) يقول في هذا الصدد طه عبد الرحمن: «وقد وقع اختيارنا منذ 1970 على مصطلح (التداوليات) مقابلا للمصطلح الغربي (براغماتيك) لأنه يوفي المطلوب حقه باعتبار دلالاته على معنيي الاستعمال والتفاعل معا، ولقي منذ ذلك الحين قبولا من لدن الدارسين الذين أخذوا يدرجونه في أبحاثهم»⁽²⁶⁾.

والمنهج الذي اعتمده طه عبد الرحمن في توليد المصطلحات قائم على مبدأ الحفاظ على أصالة وخصوصية اللغة العربية، وهذا ما جعله يبتعد عن الترجمة الحرفية للمصطلح (*pragmatique*) بحروف عربية بحيث يكون هذا الأخير دخيلا على العربية، بل حاول إيجاد مصطلح عربي يعبر عن مفهوم المصطلح الغربي (*pragmatique*) معتمدا آليات لغوية تخدم اللغة العربية، ويُدْرَج طه عبد الرحمن التداولية في الحقل اللساني حيث قسم اللسانيات إلى ثلاثة أقسام هي:

أ- الدَّالِّيَّات: وهي الدراسات التي تعنى بوصف- وإن أمكن بتفسير- الدال الطبيعي في نطقه وصوره وعلاقاته؛ وبهذا تكون الدَّالِّيَّات شاملة للمكونات الثلاثة الصوتيات والصرفيات والتركيبيات.

ب- الدَّلاليات: وهي الدراسات التي تعنى بوصف و-إن أمكن بتفسير- العلاقات التي تجمع بين الدوال الطبيعية ومدلولاتها سواء اعتبرت تصورات في الذهن أو أعيانا في الخارج.

ج- التَّداوليات: وهي الدراسة التي تعنى بوصف -وإن أمكن بتفسير- العلاقات التي تجمع بين الدوال الطبيعية ومدلولاتها وبين الدالين بها»⁽²⁷⁾.

فمن خلال ما طرحه طه عبد الرحمن يمكننا القول أن التداولية جاءت متممة لمسار اللسانيات إلا أنها اختلفت عنها في كونها اهتمت بدراسة اللغة أثناء الاستعمال ولذلك يقال: بمجرد أن ينتهي عمل اللساني في دراسة اللغة (البنية)، يظهر دور التداولي الذي يهتم بدراسة أبعاد هذه البنية النفسية والاجتماعية والثقافية في عملية التواصل اللغوي، وعليه تكون التداولية فعلا امتدادا للسانيات.

ويعرف طه عبد الرحمن التداولية بقوله: «التداول عندنا متى تعلق بالممارسة التراثية هو وصف لكل ما كان مظهرا من مظاهر التواصل والتفاعل بين صانعي التراث من عامة الناس وخاصتهم كما أن المجال في سياق هذه الممارسة هو وصف لكل ما كان نطاقا مكانيا وزمانيا لحصول التواصل والتفاعل فالمقصود بمجال التداول في التجربة التراثية هو إذا محل التواصل والتفاعل بين صانعي التراث»⁽²⁸⁾. فالتداول من خلال هذا التعريف جاء بمعنى التفاعل والتواصل. ويعد طه عبد الرحمن من المفكرين الأوائل الذين حاولوا التعريف بالفكر التداولي وتطبيقه في مناحي الثقافة العربية الإسلامية.

أما بالنسبة لمحمد محمد يونس علي فقد ترجم مصطلح (*pragmatique*) "بعلم التخاطب" لأنه لاحظ أن أساس هذا العلم قائم على دراسة المعنى أثناء التخاطب وأن بعض التراجع التي قدمت من طرف اللسانيين العرب لم تكن موفقة كالذرائعية والنفعية والاتصالية وغيرها يقول في هذا الصدد: «أفضل ترجمة مصطلح (*pragmatics*) بعلم التخاطب وليس بالتداولية أو النفعية أو الذرائعية كما يفعل عدد من اللغويين العرب توهمنا منهم بأن (*pragmatics*) و (*pragmatisme*) شيء واحد، والواقع أن المصطلح الأول يطلق على الدراسات التي تعنى بالمعنى في السياقات الفعلية للكلام وهو ما يتفق مع معناه الحرفي وهو علم الاستعمال ولذا فإن ترجمة مصطلح (*pragmatics*) بعلم التخاطب أنسب في رأيي من الخيارات التي اطلعت عليها حتى الآن، أما الذرائعية فهي مدرسة فلسفية ظهرت في أمريكا تذهب إلى أن الفكرة النظرية لا تجدي نفعاً ما لم تكن لها تطبيقات عملية»⁽²⁹⁾.

وقد أشار محمد محمد يونس علي في كتابه "مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب" إلى الغاية من علم التخاطب بقوله: «...هي معرفة كيفية حصول التفاهم بين المتخاطبين وتشمل مسأله كل العناصر التي تسهم في إحداث التخاطب من وضع واستعمال وقرائن وأنواع الدلالات المختلفة والنظريات الدلالية ذات الصلة بالاستعمال والسياق»⁽³⁰⁾، كما أنه حدد مبادئ هذا العلم وجعلها محصورة في قضايا اللغة المختلفة التي تبحث في فقه اللغة والصرف والنحو والبلاغة واللسانيات وتحليل الخطاب والنص وعلم الأصول وعلم التفسير والمنطق والفلسفة وغير ذلك مما له صلة بالموضوع

فهذا الباحث بالرغم أنه يرى أن مصطلح براغماتيك الأجدر أن يسمى علم الاستعمال إلا أنه يفضل ترجمته بعلم التخاطب، لأنه يرى أن هذا العلم يهتم بدراسة كل ما له علاقة بالعملية التخاطبية فيحاول معرفة الكيفية التي يحصل من خلالها التفاهم بين المتخاطبين ويكشف عن العناصر التي تساعد في إنجاح

عملية التخاطب، إلا أن المفهوم الذي قدمه لعلم التخاطب «يتسم بالعمومية إذ لا يقف على طبيعة الدراسة التداولية في مقابل العلوم الأخرى ولا يضبط مجالها، ولا يكشف عن علاقاتها ببقية الحقول»⁽³¹⁾.

وهناك من الباحثين من اختار مصطلحا آخر مقابلا لمصطلح *pragmatique* كمحمد لطفي الزليطي ومنير التريكي اللذين فضلا مصطلح "علم المقاصد" ويبرران ذلك بقولهما: «والذي دعانا إلى اختيار هذا المصطلح دون غيره هو أن مفهوم *pragmatics* ينبنى أساسا على القصد والمقصدية في بعدها الاجتماعي، كما أننا إذا أقررنا بمشروعية ترجمة *sémanctics* بمصطلح علم الدلالة فيجوز قياسا أن نطلق على *pragmatics* اصطلاح علم المقاصد»⁽³²⁾ أي بما أن التداولية تهتم بالدرجة الأولى بمقاصد المتكلمين وكيفية إيصالها إلى المتلقين، يمكننا أن نقرباًن هذين الباحثين وفقا إلى حد ما في اختيارهما لمصطلح علم المقاصد مقابلا لمصطلح *pragmatics*، «فهما قد اعتمدا معيار القياس في الوضع المصطلحي وهذا مقبول، لكن لهذا الاقتراح مفهوما خاصا في الثقافة العربية الإسلامية يجعله غير دقيق إذا ما قابلناه مع *pragmatics*»⁽³³⁾.

وقد انتقد هذا الاقتراح محمود عكاشة، وعلل ذلك بأن المقاصد في صيغة الجمع تناسب الخطاب الشرعي ولا تناسب الخطاب البشري المحدود حيث يقول: «...فالخطاب الشرعي من لدن عزيز حكيم ومحكم وحمال لمقاصد نافعة، وأرى أنه من الصواب أن يظل جمعا قيد الخطاب الشرعي وألا يستخدم في قصد الخطاب البشري المحدود... ولك أن تستخدم مصطلح القصد مفردا في تحليل الخطاب البشري بالمعايير الغربية... فالمقصد هو الذي نهضت عليه الدراسات التداولية والخاص بالخطاب البشري»⁽³⁴⁾.

ويبدو أن الباحث الجزائري عبد المالك مرتاض لا يتفق مع من ترجم مصطلح *pragmatique* بالتداولية ويقترح أن يترجمه بالتداول دون الياء الصناعية كي لا يتم ترجمة مصطلحي *pragmatique*، *pragmatisme* بصيغة عربية واحدة فيكون التداول دالا على المصطلح الأول بمعنى تداول اللغة وتكون التداولية للدلالة على المفهوم الثاني المرتبط بالزعة الفلسفية القائمة على مبدأ النفعية يقول في هذا الصدد: «... وقد اصطنع في العربية النقدية المعاصرة على أنه تداولية في حين أننا نشك في أنه كذلك... لأن صيغة هذا الاستعمال

pragmatique لا تدل على وجود ياء الزعة المعرفية (علمية أو فلسفية أو أدبية) والتي يطلق عليها النحاة العرب بغير إقناع الياء الصناعية، فالأجانب يصطنعون صيغة أخرى لما يقابل هذه الياء أو اللاحقة الثنائية على الأصح "ية" (*pragmatisme*)، فكيف نترجم نحن العرب مفهومين اثنين في أصلهما بصيغة عربية واحدة...»⁽³⁵⁾ بالإضافة إلى هؤلاء الباحثين نذكر الباحث المغربي أحمد المتوكل الذي تبني نظرية النحو الوظيفي لـ سيمون دايك، وقدم كتابات عديدة تصف وتفسر وتشرح كثيرا من قضايا اللغة العربية من وجهة نظر وظيفية كما اهتم اهتماما كبيرا بالتداولية «معتبرا إياها أحد المكونات الوظيفية في وصف بنيات اللغة العربية وتفسيرها، وكذلك اهتم بتحديد طبيعة الوظائف التداولية في اللغة العربية، وهذه الأخيرة هي علاقات أو وظائف تسند بالنظر إلى المقام التبليغي أو السياق في بعده المقامي والمقالي»⁽³⁶⁾، وقد اهتم كثيرا ببعث التيار التداولي من خلال أعماله القيمة نذكر منها ما يلي:

الوظائف التداولية في اللغة العربية 1985م، الجملة المركبة في اللغة العربية 1987م، الوظيفة والبنية مقاربات وظيفية لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية 1988م، وقضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية بتطبيقاته الثلاثة:

البنية التحتية أو التمثيل التداولي 1995م، بنية المكونات أو التمثيل الصرفي التركيبي 1996م، بنية الخطاب من الجملة إلى النص (2001م)، الخطاب وخصائص اللغة العربية (دراسات في الوظيفة والبنية والنمط) 2010م، وقضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية 2013م.

ويقول المتوكل في كتابه الوظائف التداولية في اللغة العربية: «يعتبر النحو الوظيفي الذي اقترحه سيمون ديك في السنوات الأخيرة في نظرنا، النظرية الوظيفية التداولية الأكثر استجابة لشروط التنظير من جهة ولمقتضيات النمذجة للظواهر اللغوية من جهة أخرى كما يمتاز النحو الوظيفي على غيره من النظريات التداولية بنوعية مصادره فهو محاولة لصهر بعض مقترحات نظريات لغوية (النحو العلاقي، نحو الأحوال الوظيفية ونظريات فلسفية) (نظرية الأفعال اللغوية خاصة أثبتت قيمتها في نموذج صوري مصوغ حسب مقتضيات النمذجة في التنظير اللساني الحديث»⁽³⁷⁾

ولقد عمل المتوكل على تأسيس نحو وظيفي للغة العربية في جميع مستوياتها وقدم في ذلك أعمالاً متتالية محاولاً تطبيق نظرية غربية على اللغة العربية، حيث عمل في البداية على تقديم النظرية الغربية الوظيفية والتعريف بها، ثم خصص دراسته لمعالجة بعض قضايا اللغة العربية من منظور وظيفي، كما نجده في بعض مؤلفاته يحاول ربط التراث اللغوي العربي بالدرس الوظيفي الحديث مع محاولته تقديم اقتراحات جديدة لهذه النظرية تثرى النظرية النحوية الوظيفية حيث يشير في مقدمة كتابه: «...توصلنا في هذه المحاولة إلى أن النظرية الثاوية خلف مختلف العلوم اللغوية (نحو، بلاغة، فقه اللغة ...) نظرية تداولية وأنها بالتالي قابلة للتجاوز بمعنى (القرض والاقتراض) مع النظريات التداولية الحديثة بما فيها نظرية النحو الوظيفي»⁽³⁸⁾

فهو في كتابه هذا عمل على وصف الوظائف التداولية في اللغة العربية مع توظيف تحليلات ومفاهيم عربية قديمة أي أنه عمل على ربط التراث اللغوي العربي القديم بالدراسات الحديثة وكأنه يحاول الإشارة إلى أن التراث اللغوي العربي القديم قد احتوى بعدا تداوليا لا يستطيع أحد إنكاره حيث يقول في هذا الشأن: «...إلا أننا سنقتض في وصفنا لهذه الوظائف كلما دعت الحاجة إلى ذلك تحليلات ومفاهيم من الفكر اللغوي العربي القديم نحوه وبلاغته، في هذا الصدد نشير إلى أننا (المتوكل 1982) وضعنا لبنة أولى لمنهجية تمكن من إعادة قراءة الفكر اللغوي العربي القديم وكل فكر لغوي قديم بصفة عامة وإدماجه في الفكر اللساني الحديث واستثماره في وصف اللغات الطبيعية بما فيها اللغة العربية وما يتفرع منها»⁽³⁹⁾

ويعتبر المتوكل من مؤيدي استخدام مصطلح التداولية كمقابل لمصطلح *pragmatique*، متبنياً في ذلك ما اقترحه طه عبد الرحمن، بالإضافة إلى محمد عناني الذي يقابل مصطلح (*pragmatique*) في معجمه المصطلحي بالتداولية أو السياقية أو الموافقية، وقابله عادل فاخوري في كتابه (تيارات في السيمياء) بعلم التداول، وأما الباحث عبد الرحمن الحاج صالح، فيفضل ترجمته بالاستعمالية.

في حين أن مسعود صحراوي في سياق حديثه عن مفهوم التداولية يشير إلى أن الأجدران تسمى علم الاستعمال اللغوي ويرى أنه من الواجب التساؤل عن المعيار الذي نعتمده في تحديد مفهومها حيث يقول: «...هل نحدده بناء على معيار البنية اللغوية وحدها؟...هل نحدده بناء على معيار الاستعمال اللغوي وحده؟...هل نحدده بناء على تعالق البنية اللغوية بمجال استعمالها؟»⁽⁴⁰⁾

وهو يرى أن المعيار الأخير هو الأنسب في تحديد مفهوم التداولية، لأنه باعتمادنا على معيار البنية اللغوية وحدها تكون التداولية مساوية للسانيات البنيوية، وإذا اعتمدنا معيار الاستعمال اللغوي وحده فإننا نقر بأنه لا صلة تذكر بينه وبين البنية اللغوية وهذا مخالف لما انتهت إليه البحوث التداولية، لذلك فالمعيار الثالث هو الأجدر باعتماده، وهنا نذكر تعريفه للتداولية يقول: «التداولية ليست علما لغويا محضا، بالمعنى التقليدي، علما يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، ولكنها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، ويدمج من ثم مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة التواصل اللغوي وتفسيره». ⁽⁴¹⁾ فمقياس البحث في اللغة «ربط بنية اللغة بوظيفتها التواصلية ارتباطا يجعل البنية انعكاسا للوظيفة كما حدد المتوكل في النظرية الوظيفية، ذلك أن كل تركيب ترتب ألفاظه تبعا لوظيفة التواصل؛ أي رصد العلاقات بين الأنماط التركيبية المختلفة والوظيفة الإفصاحية»⁽⁴²⁾ ويضيف أنه بالرغم من تباين آراء وأقوال الدارسين حول التداولية، وتشكيكهم في جدواها إلا أن «معظمهم يقر بأن قضية التداولية هي إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي وتصير التداولية من ثم جديرة بأن تسمى علم استعمال اللغوي». ⁽⁴³⁾ وبالرغم من أن مسعود صحراوي يرى أن مصطلح "علم استعمال اللغوي هو الأنسب كمقابل عربي لمصطلح (*pragmatique*) إلا أنه لا يستعمله في كتابه "التداولية عند العلماء العرب" فإذا رجعنا إلى الجهاز المفاهيمي الذي أورده في كتابه وجدناه يوظف مصطلح "التداولية" فقط حيث يذكر (مفهوم التداولية، مهام التداولية، وأبرز المفاهيم التداولية) وهذا يعني أنه يتفق مع من يقابل مصطلح (*pragmatique*) بالتداولية حيث يذكر في هامش الصفحة 15 "من كتابه أنه لا يتفق مع «الباحثين العرب الذين ترجموا مصطلح (*pragmatics/ pragmatique*) بالذرائعية أو الذريعة أو غيرهما من المصطلحات المتحافلة معهما»⁽⁴⁴⁾ لأنه يرى أن مصطلح الذرائعية يتناسب مع المصطلح الأجنبي (*pragmatisme*) الذي يحيل على الفلسفة النفعية كما أشرنا سابقا، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الباحث مسعود صحراوي عند عرضه لمفهوم التداولية لم يذكر الدرجات الثلاث للتداولية والتي كان الهولندي هانسون أول من تطرق إليها في شكل برنامج متكامل سنة 1974 وهي على التوالي:

«- تداولية الدرجة الأولى: وتتجلى من خلال لسانيات التلفظ، أو النظر إلى اللغة بوصفها فعلا كلاميا ذا طابع فردي .

- تداولية الدرجة الثانية: وتهتم بكيفية التعبير، ويجب في هذه الحالة أن تتميز القضية التي يجري عنها التعبير عن الدلالة الحرفية للجملة كما هو شأن المستوى الأول.

- تداولية الدرجة الثالثة: وتعنى بأفعال الكلام. ⁽⁴⁵⁾

ويلخص مسعود صحرأوي مجال اهتمام التداولية بقوله: «التداولية مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمله، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجعة. والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية»⁽⁴⁶⁾.

والملاحظ مما سبق أن اللغويين العرب لم يتفقوا على مصطلح واحد كمقابل لمفهوم المصطلح الأجنبي (*pragmatique*)، حيث تعددت التسميات العربية المقابلة له ف قيل: «البراغماتية والبراغماتيك، البراجماتية والبراجماتيك، وليس بين هذه الاصطلاحات فرق، بعدها نقلا حرفيا للكلمة الأجنبية وقيل: التداولية، المقامية، الوظيفية السياقية، الذرائعية، النفعية... وبين هذه التعبيرات -في الواقع- فروق لا تسمح باستعمالها مترادفة، لتكون مقابلة للمصطلح الأجنبي بمفهومه... ومن أسباب عدم استقرار المصطلح العربي على صيغة واحدة عدم استقرار مفهوم التداولية نفسه وموضوعها في تيار واحد، وربما عكس الاصطلاح البيئة التي نشأ فيها أو الظروف الثقافية التي يحملها»⁽⁴⁷⁾ وهذا ما يعاب على الدراسات اللغوية العربية الحديثة منذ بداية انتقال اللسانيات الحديثة إلى الفكر العربي، فالذين عملوا على ترجمة المؤلفات الأجنبية كانت أعمالهم فردية وجهودهم غير موحدة فهم لا يتقيدون بمنهجية علمية دقيقة في ضبط المصطلحات اللسانية وهذا ما ولد إشكالية المصطلحات التي شكلت أكبر عائق واجه الدرس اللغوي العربي الحديث بحيث أن المفهوم الواحد له عدة مقابلات عربية سواء في المشرق أو المغرب العربي وهذا ما أدى إلى حدوث اضطراب في اللسانيات العربية الحديثة وبالتالي عدم مواكبة التطور الحاصل في البلدان الأجنبية في مجال الدراسات اللغوية، ففي الوقت الذي يحاول فيه العلماء اللغويون الغربيون تطوير نظرياتهم وبحوثهم كان العرب ولا يزالون منشغلين بتجاوز الصعوبات التي واجهتهم بعد وفود اللسانيات الحديثة بما في ذلك العمل على توحيد المصطلحات الذي سيخلق حتما نوعا من التقارب بين العلماء العرب ويوفر الجهد على الباحثين ويقلص مجالات الاختلاف بينهم فكما يقال: "المصطلحات هي مفاتيح العلوم"، وضبطها يؤدي إلى نجاح وتطور العلم، بالإضافة إلى إشكالية تعريب المصطلحات وكذا غياب ثقافة المجموعة العلمية التي يعمل وفقها اللسانيون الغربيون، وهذا يسهل عليهم العمل ويختصر الوقت.

الهوامش والإحالات:

(1) - الآية 140 من سورة آل عمران.

(2) - خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة ط1/2009، ص 150.

(3) - الآية 07 من سورة الحشر.

(4) - خليفة بوجادي: مرجع سابق، ص 149.

(5) - نفسه، ص 149/150.

- (6) - يسمينة عبد السلام: نظرية الأفعال الكلامية في ظل جهود أوستن، مجلة المخبر - أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد 10/2014، ص98.
- (7) - الزمخشري: أساس البلاغة، ص129/128.
- (8) - عيسى بربار: أطروحة دكتوراه، البعد التداولي في العملية التواصلية، شعر الأمير عبد القادر الجزائري أنموذجا، 2016/2015، جامعة أحمد بن بلة، وهران، ص38.
- (9) - بربار: البعد التداولي في العملية التواصلية، شعر الأمير عبد القادر الجزائري أنموذجا، ص38.
- (10) - مرتضى جبار كاضم: اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني، قراءة استكشافية للتفكير التداولي عند القانونيين، منشورات ضفاف، لبنان، ط1/2015، ص13.
- (11) - بن عيسى عبد الحليم: مصطلح التداولية في الدراسات العربية المعاصرة بين التلقي والتأسيس - قراءة تحليلية نقدية، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد 20/جوان 2018، ص5.
- (12) - مرتضى جبار كاضم، مرجع سابق، ص14.
- (13) - نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، ط2003، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ص166.
- (14) - محمد مدور، أطروحة دكتوراه، الأفعال الكلامية في القرآن الكريم، سورة البقرة دراسة تداولية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2013/2014، ص18.
- (15) - نعمان بوقرة، مرجع سابق، المرجع نفسه، ص166.
- (16) - نفسه، ص166.
- (17) - محمد مدور: الأفعال الكلامية في القرآن الكريم، سورة البقرة دراسة تداولية، ص166.
- (18) - نفسه، ص166.
- (19) - نفسه، ص166.
- (20) - نفسه، ص166.
- (21) - مرتضى جبار كاضم: اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني، ص16.
- (22) - نوري سعودي أبو زيد: في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، بيت الحكمة، ط1/2009، ص34.
- (23) - دلال وشن: أطروحة دكتوراه، القصصية في الموروث اللساني العربي، دراسة في الأسس النظرية والإجرائية للبلاغة العربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2016/2015، ص18.
- (24) - نفسه، ص18.
- (25) - بن عيسى عبد الحليم: مصطلح التداولية في الدراسات العربية المعاصرة بين التلقي والتأسيس، ص7.
- (26) - بن عيسى عبد الحليم: مصطلح التداولية في الدراسات العربية المعاصرة بين التلقي والتأسيس، ص8.
- (27) - مرتضى جبار كاضم: اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني، ص21.
- (28) - طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2/2005، ص244.
- (29) - دلال وشن: القصصية في الموروث اللساني العربي، ص13.
- (30) - بن عيسى عبد الحليم: مصطلح التداولية في الدراسات العربية المعاصرة بين التلقي والتأسيس، ص8.
- (31) - نفسه، ص8.
- (32) - بن عيسى عبد الحليم: مصطلح التداولية في الدراسات العربية المعاصرة بين التلقي والتأسيس، ص9.
- (33) - نفسه، ص8.

- (34) - نفسه، ص7.
- (35) - باديس لهويمل: التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، العدد 2011/7، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ص157.
- (36) - نجيب بن عياش: أطروحة ماجستير، المكون الوظيفي في اللغة العربية من الجملة إلى الخطاب عند أحمد المتوكل من خلال كتابه قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، 2014/2013، جامعة سطيف، ص143.
- (37) - أحمد المتوكل: الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، دار البيضاء، المغرب، ط1 / 1985، ص09.
- (38) - نفسه، ص10.
- (39) - أحمد المتوكل: الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص10.
- (40) - مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص15.
- (41) - مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص16.
- (42) - عائشة برارات: <https://www.voiceofarabic.com>، أضافه مجهول في الخميس، 2010/11/11 - 08:40.
- (43) - مسعود صحراوي: مرجع سابق، ص16/17.
- (44) - نفسه، ص15.
- (45) - نواري سعودي أبو زيد: في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، ص27.
- (46) - حورية زلاقي: محاضرات اللسانيات التداولية، السنة الثانية ماستر لسانيات، المحاضرة الثانية، ص1.
- (47) - خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، ص65-66.